

منهجية توظيف كتب الجغرافية والرحلات في كتابة التاريخ الاقتصادي لبلاد
المغرب: ابن حوقل، البكري، والإدرسي نموذجاً

How to Use Travel and Geography Books in " Writing the Economic History of the Maghreb: Ibn "Hawqal, al-Bakri, and al-Idrisi as Case Studies

أ.د موسى هوارى جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

moussa.houari@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2025 / 09 / 30 تاريخ القبول: 2025 / 11 / 06 تاريخ النشر: 2025/12/16

Abstract :

This article addresses a methodological question concerning the ways in which researchers—particularly those at the early stages of their academic careers—engage with geographical sources in order to interrogate them and extract historical knowledge. The study focuses on three major works of this genre: *Ṣūrat al-Arḍ* by Ibn Ḥawqal al-Naṣībī, *Al-Maghrib fī Dhikr Bilād Ifrīqiyya wa-l-Maghrib* by Abū ‘Ubayd Allāh al-Bakrī, and *Nuzhat al-Mushtāq fī Ikhtirāq al-Āfāq* by al-Sharīf al-Idrīsī. It seeks to identify the principal challenges encountered in the use of such sources and to propose appropriate strategies for addressing them, illustrated through concrete examples drawn from these three texts.

أ.د موسى هوارى

moussa.houari@univ-alger2.dz

Keywords: Historical research methodology, travel books, geography books, country books, economic history

الملخص:

يتناول هذا المقال مسألة منهجية تتمثل في كيفية تعامل الباحثين خاصةً المبتدئين منهم مع المصادر الجغرافية، من أجل استنطاقها واستخراج المادة العلمية التاريخية، وقد اخترت ثلاثة مصادر مهمة من هذا النوع، وهي كتاب صورة الأرض لابن حوقل النصيبي، وكتاب أبي عبيد الله البكري المسمى: "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"، وكتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " للشريف الإدريسي، حيث سيحاول هذا المقال الوقوف عند أهم الصعوبات التي يواجهها الباحث عند استخدامه لهذا النوع من المصادر، مع تقديم الحلول المناسبة من أجل تجاوز الصعوبات، مع أمثلة من هذه المصادر الثلاث.

الكلمات المفتاحية: منهجية البحث التاريخي، كتب الرحلة، كتب الجغرافية، كتب البلدان، التاريخ الاقتصادي.

مقدمة:

تعتبر كتب الرحلة والجغرافيا (تعرف أيضاً بكتب البلدان)، من المصادر المهمة لدراسة تاريخ بلاد المغرب، وخاصة في جانبه الاقتصادي، لاحتوائها على مادةٍ متنوعةٍ وغزيرةٍ، وتناولها لجوانبٍ أغفلتها المصادر الأخرى، حيث أن أصحاب هذا النوع من الكتابات، ومن خلال حديثهم عن الأقاليم والمدن والقرى، ووصفهم للمسالك، وثَّقُوا مُشاهداتهم عن الحياة اليومية، وتحدثوا عن تفاصيلٍ صغيرةٍ، تُعتبر اليوم مهمةً للباحثين، لكنَّ طبيعة مادتها تختلف عن مادة المصادر التاريخية الأخرى من حيث الشكل والمضمون، لاختلاف الهدف الذي كُتبت من أجله، فالجغرافيون والرحالة، لم يكتبوا بغرض التأريخ للحوادث، وتوثيقها للأجيال التي تأتي بعدهم، لكنهم كتبوا للتعريف بالبلدان وأهلها، والمسالك وطرق المواصلات، من أجل تسهيل السَّفر على الحجيج والتجار، أو من أجل أغراضٍ عسكريةٍ وسياسيةٍ أحياناً، وهذا ما جعل التعامل مع هذه المادة صعباً، ومختلفاً عن طريقة التعامل مع غيرها من الكتابات، وسنحاول في هذا المقال عرض بعض الملاحظات التي قد تفييد الباحث المبتدئ في استغلال كتب الرحلة وتوظيفها في أبحاثه.

1-المصادر الجغرافية المختارة للدراسة:

اخترنا للحديث عن هذا الموضوع، ثلاثة مصادر تحدثت عن بلاد المغرب، أولها كتاب: "صورة الأرض" لأبي القاسم محمد بن علي الموصلي

الحوقلي البغدادي، المعروف بابن حوقل النصيبي (ت بعد 367هـ / 978م)⁽¹⁾، وهو الرحالة الذي زار بلاد المغرب بين سنتي: 330هـ / 916م و 340هـ / 951م، وجاب مختلف نواحيها، وقد اعتبره الباحث كراتشكوفسكي: "الخبر الأول من بين جغرافي القرن العاشر في شؤون المغرب"⁽²⁾

والكتاب الثاني هو كتاب أبي عبيد الله البكري (ت. 487هـ / 1085م)⁽³⁾، المسمى "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"، وهو جزء من كتاب "المسالك والممالك"⁽⁴⁾، وتتمثل قيمة هذا الكتاب الذي لم يغادر مؤلفه بلاد الأندلس إطلاقاً⁽⁵⁾، في أنَّ البكري نقل عن مؤلفين سابقين له، أصبحت كتبهم مفقودةً مثل: محمد بن يوسف الوراق (ت. 363هـ / 974م)، وإبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي⁽⁶⁾، إضافةً إلى أنه نقل عن وثائق رسمية كانت محفوظةً في ديوان قرطبة بالأندلس⁽⁷⁾، فاستطاع البكري بذلك أن يحافظ على الكثير من النصوص التي ضاعت، لذلك اعتبره البعض "أكبر جغرافي أخرجته الأندلس قاطبة"⁽⁸⁾.

أما المصدر الثالث، وهو لا يقل أهميةً عن سابقيه، فهو كتاب: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"⁽⁹⁾، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله المعروف باسم: الشريف الإدريسي، (ت 560هـ / 1165م)⁽¹⁰⁾، وهو كتابٌ قيّمٌ تناول فيه صاحبه معظم أرجاء العالم القديم، ولم يُخصّصه لبلاد الإسلام فقط، وتفاوتت قيمة معلوماته باختلاف المناطق، لكنها بالنسبة لبلاد المغرب جد محترمة، حتى قال عنه كراتشكوفسكي: "ليس هناك مؤلفٌ حفظ لنا معطياتٍ وافرة ذات قيمة كبرى عن بلاد المغرب كما فعل الإدريسي"⁽¹¹⁾.

ويرجع سبب اختيار هذه المصادر دون غيرها إلى كونها أكثر المصادر تفصيلاً في وصف بلاد المغرب، لأن مؤلفيها عرفوا المنطقة عن قرب، فابن حوقل النصيبي

زار المغرب وعاش فيه مدةً، وتجول في أغلب مدنه، وخالط أهله، فجاءت معلوماته أكثر دقةً، من سابقه، وكان البكري أندلسياً يعرف المغرب لقربه من بلده، رغم أنه لم يرحل ولم يزر المغرب، لكنه كان على اتصالٍ بالتجار والمسافرين الأندلسيين، الذين كان مُروّهم على المغرب ضرورياً عند كل رحلةٍ، أما الإدريسي فهو من أبناء المنطقة، ولد بمدينة "سبتة" وتوفي بها، وسافر إلى مختلف مدن المغرب، واستفاد أيضاً من مؤلفات الذين سبقوه.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المصادر ليست هي أول من تحدث عن بلاد المغرب، فقد سبقتها مصادر أخرى، مثل كتاب "البلدان"، لأحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي (ت. بعد 292هـ/905م)⁽¹²⁾، وكتاب "المسالك والممالك" لأبي إسحاق الإصطخري (ت. 346هـ/957م)⁽¹³⁾، وكتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" لأبي عبد الله المقدسي (ت. 390هـ/1000م)⁽¹⁴⁾، لكن هذه المصادر رغم أسبقيتها لم تخصص للحديث عن بلاد المغرب حديثاً كبيراً، ومعلوماتها عنها عامةٌ إذا ما قورنت بالمصادر الثلاثة التي اخترناها، وإن كان لكتاب اليعقوبي قيمةٌ أكبر لتقدمه عن غيره (حوالي القرن 3هـ/9م).

إعتمد كل من ابن حوقل والبكري والإدريسي، نفس أسلوب كتب الرحلة الذي كان معروفاً في تلك الفترة، مع وجود بعض الاختلاف في ما بينهم، فخصّص ابن حوقل قسماً مهماً من كتابه صورة الأرض للحديث عن بلاد المغرب⁽¹⁵⁾، بدأه بذكر المدن من الشرق إلى الغرب، منطلقاً من مدينة برقة، وصولاً إلى المحيط

الأطلسي، وقد رسم خريطةً لبلاد المغرب بين فيها المدن والموانئ⁽¹⁶⁾، ثم ذكر أهم الطرق بين مدنه، وتعتبر المعلومات التي ذكرها في حديثه عن الطريق من "سجل ماسة" إلى "أودغست" من أهم ما جاء في هذا الباب.

انتقل بعد ذلك إلى ذكر أهم ما يُحمل من المغرب إلى المشرق من بضائع وتحفٍ، وقد حاول أن يُلخص في فقرةٍ صغيرةٍ أهم صادرات المغرب ومنتجاته، حيث قال: "وأما ما يُجَهَّز من المغرب إلى المشرق فالمُؤلّدات الحِسان الروقة ... والغلمان الرُّوقة الروم، والحرير والأكسية الصوف الرفيعة والدنية، إلى جباب الصوف وما يُعمل منه، والأنطاع والحديد والرصاص والزئبق، والخدم المجلوبون من بلاد السودان، والخدم المجلوبون من أرض الصقالبة على الأندلس، ولهم الخيل النفيسة من البراذين والبغال الفره والإبل والغنم وما لديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص، فأما أسعارهم على تنائي مُدُنهم وديارهم: فعلى غاية الرُّخص في الأطعمة والأغذية والأشربة واللُّحمان والأدهان، ولهم من جيد الفواكه والتمور والأرطاب وسائر الأغذية وعندهم من الجمال الكثيرة في براريهم وسكان صحاريهم التي لا تدانها في الكثرة إبل العرب"⁽¹⁷⁾، ويستطيع الباحث أن يستنتج من هذا النص-على قِصره- الكثير من المعلومات الاقتصادية، عن صناعة الصوف والجلود، وتجارة العبيد السود من جنوب الصحراء إلى المشرق، والعبيد الصقالبة من الأندلس إلى المشرق أيضاً، ووفرة الفواكه والأطعمة، إضافة إلى كثرة المواشي ورخص أسعارها.

انصرف ابن حوقل بعد ذلك إلى الحديث عن أهم ما يتميز به أهل المغرب من صفات، وختم كلامه عن هذه المنطقة بتعداده لقبائل البربر، فذكر منها ما لا يقل عن مائتي قبيلة⁽¹⁸⁾، كما وصف أيضاً جزيرة صقلية⁽¹⁹⁾، وكل المعلومات التي

ذكرها ابن حوقل ذات قيمة تاريخية كبيرة، نظراً للفترة التي كُتبت فيها (النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي)، ولأنه وثّقها من مشاهداته الشخصية.

أما البكري (ق.5هـ/11م) فقد استهل كتابه عن المغرب من الشرق أيضاً، وبدأه بعنوان: "المشهور من المدن والقرى في الطريق من مصر إلى برقة والمغرب"⁽²⁰⁾، وكان يصف المدن الواحدة تلو الأخرى، ويُضَمِّن حديثه الكثير من الأخبار والروايات التاريخية، ويُطعّم أحاديثه بالأبيات الشعرية⁽²¹⁾، وركز على المدن الشمالية الواقعة على الطريق القريب من الساحل، دون أن يُهمل تلك الجنوبية الواقعة على الطرق الصحراوية، والملاحظ على البكري أنه يذكر أكثر من طريق للانتقال بين مدينتين، وفي كل مرة يصف المدن الواقعة بينهما، مثلما هو الحال مع الطريق من مدينة القيروان إلى قلعة أبي طویل⁽²²⁾، الذي قال عنه في موضع آخر: "وطريق آخر من القيروان إلى قلعة أبي طویل"⁽²³⁾، وتناول البكري الطريق إلى بلاد السودان، وقد جاء في هذا الفصل ذكرٌ لأخبار أهل الصحراء وعبد الله بن ياسين ومعلومات مهمة عن المرابطين⁽²⁴⁾، كما تحدث عن بلاد السودان ومدنها المشهورة⁽²⁵⁾، وختم حديثه عن المغرب بفصل سماه "ذكر نُبَذ من سير البربر وسياساتهم سوى ما وقع منها مفترقا في موضعه من هذا الكتاب"⁽²⁶⁾، ويتميز كتاب البكري -إضافة إلى ما جاء فيه من ذكرٍ للمسالك والطرق ووصفٍ للمدن- بأنه

انفرد بكثيرٍ من المعلومات التاريخية التي لم يذكرها إلا عددٌ قليلٌ جداً من المصادر، مثل هو الحال مع أخبار دولة برغواطة⁽²⁷⁾.

والمعلومات عن اقتصاد بلاد المغرب وافرةٌ في نصوص البكري، وسنذكر منها على سبيل المثال ما جاء عن مدينة "سرت" حيث يقول: "وهي مدينةٌ كبيرةٌ على سيف البحر، عليها سور طويٌّ وبها جامع وحمّامٌ وأسواقٌ، ولها ثلاثة أبوابٍ؛ قِبْلِيٌّ وجَوْفِيٌّ وبابٌ صغيرٌ إلى البحر، ليس حولها أرباضٌ، ولهم نخلٌ وبساتينٌ وآبارٌ عذبةٌ وجبابٌ كثيرةٌ، وذبائحهم الماعز ولحمانها عذبةٌ طيّبةٌ، ليس يُؤكل بطريق مصرَ أطيب من لحومها، وأهل سرت من أحسن خلق الله خلقاً، وأسوئهم معاملَةً لا يبيعون ولا يبتاعون إلاّ بسعرٍ قد اتَّفَق جميعُهُم عليه، وربّما نزل المركب بساحلهم موسوقاً بالزيت، وهم أحوج الناس إليه، فيعمدون إلى الرِّقاق الفارغة فينفخونها ويوكونها ثم يصفّونها في حوانيتهم وأفنيتهم ليرى أهل المركب أن الزيت عندهم كثيرٌ بائزٌ، فلو أقام أهل المركب عندهم ما شاء الله أن يقيموا ما باعوا منهم إلاّ على حكمهم"⁽²⁸⁾، والمستنتج من هذا النص إضافةً إلى وجود بساتين النخيل، وفرّة الماعز وكثرة استهلاك لحومها، واشتبارها بالطيب والجودة، كما يكشف البكري عن تزود أهل هذه المدينة بالتجارة عن طريق البحر، وحاجة أهلها إلى الزيت، وعن تحايل أهلها في تجارتهم.

أما الشريف الإدريسي "أشهر جغرافي العرب" بالنسبة للأوروبيين⁽²⁹⁾، والمؤلف الذي تعلمت أوروبا في العصور الوسطى؛ الجغرافية من كتبه المترجمة إلى اللاتينية⁽³⁰⁾، فقد قسم كتابه إلى سبعة أقاليم، وهو نفس التقسيم الذي اعتمده أكثر الجغرافيين الذين سبقوه من العرب، ومن غيرهم، وقد ورد ذكر المغرب في الإقليمين الثالث والرابع، وهو ينطلق في وصفه لبلاد المغرب من المغرب الأقصى،

ثم يتوجه شرقاً، عكس ابن حوقل والبكري، رغم أنه كان كثير الأخذ عن ابن حوقل، وترددت في كتابه عبارة: "وحكى الحوقلي" أكثر من مرة⁽³¹⁾، خاصة فيما يتعلق بالمغرب.

ويعتبر كتاب "نزهة المشتاق" مصدراً متنوع المواضيع لأنَّ صاحبه يُقدم فيه إضافةً إلى المعلومات الفلكية والطبيعية، والبشرية، أخباراً أخرى كثيرة، وكمثال على ذلك نذكر وصفه لمدينة فاس حيث يقول: "... ولأهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم وجميع آلاتهم، ونعمها كثيرة، والحنطة بها رخيصة الأسعار جداً دون غيرها من البلاد القريبة منها، وفواكهها كثيرة، وخصبها زائد، وبها في كل مكانٍ منها عيونٌ نابعة، ومياهٌ جارية، وعليها قبابٌ مبنية، ودواميس محنية، ونقوشٌ وضروبٌ من الزينة، وبخارجها الماء مُطردٌ نابعٌ من عيونٍ غزيرة، وجهاتها مخضرة مؤنقة، وبساتينها عامرة، وحدائقها ملتفة، وفي أهلها عزة ومنعة"⁽³²⁾، والمتأمل لهذه الفقرة القصيرة يلاحظ تنوع الموضوعات التي تعرض لها، فقد وصف اهتمام السكان بمبانيهم، ثم ذكر وفرة الحنطة ورخص أسعارها مقارنةً بما جاورها من مدنٍ، والفواكه والخصب، وتحدث بعد ذلك عن مصادر المياه من عيون وسواقي، وعاد مرة أخرى لذكر المباني والبساتين والحدائق، وختم بوصف أخلاق أهلها، وهذا دليل على أهمية مثل هذه النصوص في الكتابة التاريخية.

2-طريقة التعامل مع مادة المصادر الجغرافية:

سبقت الإشارة إلى أنّ مادة المصادر الجغرافية مختلفة عن مادة المصادر الأخرى، مما يجعل استخدامها في البحث التاريخي صعباً، خاصة للباحثين المبتدئين، وهذا لعدة أسباب من أهمها:

1- أنّ هذه المصادر لا تُقدّم في أكثر الأحيان معلوماتٍ تاريخيةً مباشرةً، وتتداخل مادتها إمّا مع الأدب، أو الجغرافية الطبيعية، أو الفلك، أو معها مجتمعةً، كما أنها لا تخلو في الغالب من الأساطير والأخبار الغريبة، ومن أمثلة ذلك ما أفاد به البكري عند حديثه عن بلد غمارة بالمغرب الأقصى، حين قال: "... أن عندهم قومًا يُعرفون بالرفّادة وهم في "وادي لو"، عند بني سعيد، وعند بني قطيطن" وعند "بني يروتن"، يُغشى على الرجل منهم يومين وثلاثة، فلا يتحرك ولا يستيقظ، ولو بُلغ به أقصى مبلغ من الأذى، ولو قُطّع قِطْعًا، فإذا كان بعد ثلاثة من غشيته، استيقظ كالسكران، ويكون يومه ذلك كالواله لا يتجه لشيءٍ، فإذا أصبح في اليوم الثاني، أتى بعجائب مما يكون في ذلك العام؛ من خصبٍ أو جدبٍ أو حربٍ أو غير ذلك، وهذا أمرٌ مستفيضٌ لا يخفى...!!!"⁽³³⁾، وهذه القصة رغم ما غلب عليها من خرافةٍ، يصعب تصديقها، إلا أنها تضمنت إشارةً غايةً في الأهمية، وهي تطلع أهل المغرب، لتوقع أحوال السنة من خصبٍ أو جدبٍ، لأنّ الزراعة لم تكن مضمونة كل سنةٍ، وهذه القصة تعكس حالة الخوف من الجفاف، والقلق على المحصول الذي كان يسيطر على أهل المغرب في العصر الوسيط، وأنهم كانوا يبحثون عن أجوبة لهذه المخاوف مهما كانت الطريقة.

والمستنتج من هذا المثال أن القصص الأسطورية والخيالية، قد تحوي معلومات ذات فائدةٍ، فعلى الباحث ألا يهملها، لأنها قد تفيده إذا أحسن الاستنباط، وعرف كيف يستخلص منها ما يهمه.

2- وتحتوي كتب الجغرافيا أيضاً على كثيرٍ المبالغات، التي ربما تخرج عن المعقول، وكمثالٍ على ذلك حديث البكري عن كثرة الزيتون بمدينة القيروان، حيث يقول: "... ومن عجائب القيروان أنهم يحتطبون الدهر من زيتونها، ليس لهم محتطبٌ غيره، وإن ذلك لا يُؤثر في زيتونها ولا يُنقص منه"⁽³⁴⁾، وهذه القصة وإن كانت صعبة التصديق لكون الاحتطاب من الشجر المثمر غير معقول، وهو مهلك لأشجار البساتين مهما كثرت، إلا أنها تدلّ على كثرة أشجار الزيتون في مدينة القيروان كثرةً ملفتةً، ولهذا على الباحث أن يُحسن التعامل مع القصص الخيالية أو تلك المبالغ فيها، فلا يستسلم لها ويُصدِّقها، ولا يرفضها، لكن يذكرها بتحفظٍ، ويشير إليها بحذرٍ، إذا احتاج إلى ذلك.

3- ومن الصعوبات أن المعلومات التاريخية في هذا النوع من المؤلفات، ليست مُبوبةً ولا مُقسمةً، لكنها متناثرة في ثناياها، وموزعةٌ بحسب توزيع الأقاليم أو المدن، أو الشعوب، أو القبائل، ويحتاج الحديث عن أي موضوع اقتصادي كالتجارة أو الزراعة مثلاً، إلى تجميع جزئياته عبر تتبعها في ثنايا الكتاب من منطقةٍ لأخرى.

ومما سبق يتضح أنّ كتب الجغرافية لا تُعطي للباحث صورة عامةً لأي موضوع اقتصادي، في منطقةٍ واسعةٍ مثل بلاد المغرب، لأنها كما سبق وأشرنا، تتحدث عن مدينة أو ناحية، والمعلومات التي تقدمها لا تتجاوز في الغالب حدود

تلك المدينة، ولتكوين صورةٍ كاملةٍ، يجب على المؤرخ جمع هذه المعلومات وإعادة بنائها.

4- ويصعب وضع الكثير من المعلومات الواردة في هذا النوع من المصادر (الجغرافية والرحلات) في إطارها الزمني الصحيح، لأن الجغرافيين والرحالة، كثيراً ما يُهملون ذكر التواريخ، ولا يقفون عند زمن وقوع الحادثة، ومن الأمثلة على ذلك، عندما يتحدث ابن حوقل عن مدينة القيروان فيقول: "... وكانت القيروان أعظم مدينة بالمغرب وأكثرها تجراً وأموالاً، وأحسنها منازل وأسواقاً، وكان فيها ديوان جميع المغرب وإليها تُجَبَى أموالها وبها دار سلطانها"⁽³⁵⁾، والمستنتج من كلامه أن هذه المدينة كانت في فترةٍ سابقةٍ لعصره مزدهرةً إقتصادياً، وأنَّ حالها تغيرت إلى الأسوء، وهذه معلومةٌ جدَّ مهمةٍ، لكنه ابن حوقل لم يُحدِّد تاريخ نهاية هذا الإزدهار، ولا وقت بداية التدهور، مما يُصعِّب على الباحث الاستشهاد بكلام ابن حوقل، لاستحالة وضعه في سياقه الزمني الصحيح.

ومن الحلول التي يجب أن يلجأ إليها الباحث لتجاوز مشكلة التأريخ للملاحظات ؛ أن يربط المعلومة بوقت تواجد المؤلف في المنطقة التي يتحدث عنها، إذا كان فعلاً زارها، أو بالعصر الذي عاش فيه المؤلف إذا لم يُعرف تاريخ رحلته، لكنَّ هذا الأمر أيضاً لا يخلو من المخاطر، وقد يُوقعه في الخطأ، لأنَّ كثيراً من الجغرافيين المتأخرين يكتفون بإعادة تكرار نصوص سابقهم دون الإشارة لذلك⁽³⁶⁾.

وهذا يجعل نقد النصوص وقياسها بغيرها أمراً ضرورياً، ويُحتّم على المؤرخ الجاد أن يطلّع على أكبر عددٍ من المصادر قبل استخدام أيٍّ واحدٍ منها، ولو أخذنا كتاب البكري مثلاً، فمعظم المعلومات الواردة فيه ليست بالضرورة عائدةً

لعصره(ق.5ه/11م)، وربما تسبقه بقرنٍ أو أكثر أو أقل، لأنه - وكما سبقت الإشارة - لم يسافر إلى أي مكان خارج الأندلس، واكتفى بالروايات الشفوية، والنقل عن مصادر سابقة، وهو في أغلب الأحيان لا يُحيلُ عليها ولا يُشير إليها، وعلى الباحث ألاّ يطمئنَّ إلى الكتاب إذا كان يعرف دقة ونزاهة صاحبه، لأنه لا يستطيع أن يضمن مدى توفر هاتين الصفتين في أصحاب المصادر التي رجع إليها.

ومشكلة وضع الأخبار والروايات الواردة في كتب الجغرافيا، في إطارها الزمني الصحيح، لا تُحلُّ بسهولة، إذا ذكر المؤلف مصادره التي أخذ عنها، وهذا ما نلاحظه مثلاً في رواية الإدريسي عندما تحدث عن طريقة يمكن وصفها بالغريبة، لزراعة الحنطة بمدينة "سجلماسة"، وهي عمليةٌ يتكرر بها الحصاد من عملية بذرٍ واحدة، لسبع سنواتٍ كاملة، حيث قال: "... وحكى "الحوقلي" (يقصد ابن حوقل) أنَّ البذر بها يكون عاماً، والحصاد فيه، في كل سنةٍ إلى تمام سبع سنين، لكن تلك الحنطة التي تَنْبُت من غير بذرٍ، تتغير عن حالها، حتى تكون بين الحنطة والشعير وتسمى هذه الحنطة: "يردن تيزواو"⁽³⁷⁾، والمستنتج من حديثه وجود طريقة الزراعة هذه، في أيام ابن حوقل (ق.4ه/10م)، لكن الباحث لا يستطيع الجزم باستمرار ممارستها إلى أيام الإدريسي(ق.6ه/ 12م) أو توقفها، خاصةً إذا ما عرفنا أن البكري(ق.5ه/11م) أيضاً ذكر نفس القصة، لكن بروايةٍ تختلف قليلاً عنهما⁽³⁸⁾.

نفس الملاحظة نجدها في حديث الإدريسي عن مدينة "تاهرت" أو "تمهت" حيث يقول: "ومدينة تاهرت كانت فيما سلف من الزمان مدينتين كبيرتين إحداهما قديمة والأخرى محدثة والقديمة من هاتين المدينتين ذات سورٍ وهي على قمة جبلٍ قليل العلو، وبها ناسٌ وجملٌ من البرابر، ولهم تجاراتٌ وبضائعٌ وأسواقٌ عامرةٌ وأرضها مزارعٌ وضياعٌ جمّةٌ

ومها من نتاج البراذين والخيال كل حسنٍ، وأمّا البقر والغنم بها فكثيرةٌ جداً، وكذلك العسل والسمن وسائر غلاتها كثيرةٌ مباركةٌ، وبمدينة تاهرت مياه متدفقةٌ وعيونٌ جاريةٌ تدخل أكثر ديارهم ويتصرفون بها، ولهم على هذه المياه بساتينٌ وأشجارٌ تحمل ضرراً من الفواكه الحسنة وبالجملة إنها بقعةٌ حسنةٌ⁽³⁹⁾.

والملاحظ أن هذا الوصف لمدينة "تهرت" مهمٌ، وهو يتضمن معلوماتٍ مفيدةً، تتعلق بالاقتصاد والحياة اليومية، والمؤرخ إذا أراد توظيفها يحتاج إلى وضعها في سياقٍ زمنيٍّ صحيحٍ، وقد يعتمد إلى ربطها بعصر الشريف الإدريسي، الذي عاش في القرن السادس الهجري (ت560هـ / 1165م)، لكنّ هذا بجانب الصواب، فمن المعلوم أن مدينة تهرت سقطت في نهاية القرن الثالث الهجري (سنة 296هـ)، وخربت على يد أبي عبد الله الشيعي، ولم تعد إلى سابق عهدها أبداً، لهذا على المؤرخ أن يكون حذراً، ولا يركن إلى الاستشهاد بالمصادر والنقل عنها، وعليه أن يعتمد التحليل والاستنتاج.

الخاتمة:

يتضح من خلال ما سبق أن المصادر الجغرافية مهمةٌ ومفيدةٌ، لكنها تحتاج إلى استنطاقٍ لنصوصها، والتدقيق فيها، وتتطلب قراءةً متأنيةً، من أجل جمع المعلومات واستخراجها، وقبل توظيفها يجب مقارنتها ببعضها، وبغيرها، ولا يجب الاستسلام لها أو تصديقها دون تمحيصٍ، وقد حاول هذا البحث التنبيه إلى بعض الصعوبات التي تعترض المؤرخ الذي يعود إليها في أبحاثه، وتقديم بعض الحلول التي ربما تساعد على تجاوزها، وتبقى هناك مشاكل أخرى قد تطرأ باختلاف المواضيع المدروسة، ومن الضروري التنبيه إلى أن هذا النوع من المصادر ضروري لكتابة التاريخ الاقتصادي والإجتماعي، والاستفادة منه، والتحكم في مادته أمر متاحٌ، بشرط توفر الجدية، وتطبيق قواعد المنهجية تطبيقاً سليماً.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الإدريسي أبو عبد الله محمد الشريف : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشره ر.دوزي ودي خويه، مطبعة بريل، ليدن هولندا، طبعة 1866م.
2. الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي القاهرة مصر، طبعة 1381هـ/1961م.
3. برنارد لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا، ترجمة: ماهر عبد القادر محمد، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية مصر، طبعة 1998.
4. البكري أبو عبيد الله: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب "المسالك والممالك"، نشره البارون دوسلان، الجزائر، طبعة 1857م.
5. جان سوفاجيه وكلود كاهن: مصادر دراسة التاريخ الإسلامي دليل ببليوغرافي، ترجمة: عبد الستار الحلوجي وعبد الوهاب علوب، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة، طبعة 1998.
6. الزركلي خير الدين: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة الخامسة 1980م.
7. ساعاتي فوزي محمد: البكري كمصدر لأخبار فتوح بعض البلدان والمدن والمواقع في كتابيه المغرب ومُعْجَم ما اسْتَعْجَمَ في خلافتي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما (13 - 35هـ)، مجلة جامعة الملك

سعود. الآداب، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، العدد 2، (2001، 1421)،
المجلد 13.

8. غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي
للتعليم والثقافة، القاهرة، طبعة 2013.

9. كحالة عمر رضا: معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، مكتبة المثنى-
دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة 1957 - 1376 .

10. كراتشكوفسكي أغناطيوس يوليانوفيتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة
صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدول العربية، مطبعة لجنة التأليف و
الترجمة والنشر، القاهرة، 1963م.

11. المقدسي أبو عبد الله: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق ي دي
خويه، إعادة طبعة ليدن 1906م، ص. 235، نشر في فؤاد سيزكين : سلسلة
الجغرافية الإسلامية، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية،
في إطار جامعة فرانكفورت، جمهورية ألمانيا الاتحادية، 1413هـ/ 1992م.

12. اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح: كتاب البلدان، نشره دي خويه
مع المجلد السابع من كتاب الأعلام النفيسة لأبي علي أحمد ابن رسته،
مطبعة برياً ليدن هولندا 1892م.

الهوامش: (*)

(1) الزركلي خير الدين: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب
والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة الخامسة
1980م، ج. 6، ص. 111 : كحالة عمر رضا: معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب
العربية، مكتبة المثنى- دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة 1957 - 1376 ، ج. 11،
ص. 5.

- (2) كراتشكوفسكي أغناطيوس يوليانونفيتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدول العربية، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1963م ج.1، ص.204.
- (3) الزركلي: المرجع السابق، ج.4، ص.98 ؛ ساعاتي فوزي محمد: البكري كمصدر لأخبار فتوح بعض البلدان والمدن والمواقع في كتابيه المغرب و مُعْجَم ما اسْتَعْجَمَ في خلافتي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما (13 - 35هـ)، مجلة جامعة الملك سعود. الآداب، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، العدد 2، (2001، 1421)، المجلد 13، ص.487.
- (4) البكري أبو عبيد الله: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب "المسالك والممالك"، نشره البارون دوسلان، الجزائر، طبعة 1857م.
- (5) كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ج.1، ص.275.
- (6) برنارد لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا، ترجمة: ماهر عبد القادر محمد، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية مصر، طبعة 1998، ص.111-112.
- (7) ساعاتي: المرجع السابق، ص.491.
- (8) كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ج.1، ص.274.
- (9) الإدريسي أبو عبد الله محمد الشريف : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشره ر.دوزي ودي خويه، مطبعة بريل، ليدن هولندا، طبعة 1866م.
- (10) الزركلي: المرجع السابق، ج.7، ص.24 ؛ كحالة: المرجع السابق، ج.11، ص.236.
- (11) كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ج.1، ص.279.

- (12) اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح: كتاب البلدان، نشره دي خويه مع المجلد السابع من كتاب الأعلام النفيسة لأبي علي أحمد ابن رسته، مطبعة بريا ليدن هولندا 1892م ؛ حول وفاة اليعقوبي انظر كراتشوفيسكي: المرجع السابق، ج.1 ، ص.159.
- (13) الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي القاهرة مصر، طبعة 1381هـ/1961م، ص.33.
- (14) أبو عبد الله المقدسي: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق ي دي خويه، إعادة طبعة ليدن 1906م، ص.235، نشر في فؤاد سيزكين : سلسلة الجغرافية الإسلامية، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، في إطار جامعة فرانكفورت، جمهورية ألمانيا الاتحادية، 1413هـ/1992م ؛ كراتشوفيسكي: المرجع السابق، ص.210.
- (15) أنظر ابن حوقل: المصدر السابق، من الصفحة 64 إلى الصفحة 103.
- (16) نفس المصدر، ص. 64-65.
- (17) المصدر نفسه، ص.94-95.
- (18) عن قبائل البربر عند ابن حوقل أنظر: نفس المصدر، ص.102 ؛ كراتشوفيسكي: المرجع السابق، ج.1، ص.204.
- (19) يذكر كراتشوفيسكي أن المؤرخ الإيطالي ميكيلي أماري Amari Michele ، اعتبر ابن حوقل أكبر خبير بهذه البلاد أي صقلية. المرجع السابق، ج.1، ص.204.
- (20) البكري: المصدر السابق، ص.2.
- (21) أنظر مثلاً: نفس المصدر، ص.6.
- (22) المصدر نفسه، ص.49.
- (23) المصدر نفسه، ص.53.
- (24) المصدر نفسه، ص.163 وما بعدها .
- (25) المصدر نفسه، ص.162 وما بعدها.
- (26) المصدر نفسه، ص.174.
- (27) المصدر نفسه، ص.134 وما بعدها.

- (28) المصدر نفسه، ص.6.
- (29) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، طبعة 2013، ص.485.
- (30) نفسه.
- (31) الإدريسي: المصدر السابق ، ص.60-61.
- (32) نفس المصدر، ص.76.
- (33) البكري:المصدر السابق، ص.101-102.
- (34) نفس المصدر، ص.26.
- (35) ابن حوقل:المصدر السابق، ص.94.
- (36) جان سوفاجيه وكلود كاهن: مصادر دراسة التاريخ الإسلامي دليل بليوغرافي، ترجمة:عبد الستار الحلوجي وعبد الوهاب علوب، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة، طبعة 1998 ص.71-72.
- (37) الإدريسي: المصدر السابق ، ص.60-61 ؛ أنظر: ابن حوقل: المصدر السابق، ص.90.
- (38) يقول البكري أن الحصاد يستمر ثلاث سنوات فقط. أنظر:المصدر السابق، ص.151.
- (39) الإدريسي: المصدر السابق ، ص.87.